وعلى الترهات التي لا تنتسب إلى الدين إلّا كما ينتسب التراب إلى التبر والحسك إلى الحَبّ. وضَرَب حول الفكر والخيال نطاقاً من حديد. فما يجرؤ أحد أن يخترق ذلك النطاق. حتى إذا قام مَن يقول بأنّ الأرض مستديرة لا مسطحة، وأنّها تدور حول الشمس بدلاً من أن تدور حولها الشمس، اتّهموه بالكفر وما تورّعوا عن اضطهاده وتسفيهه وتعذيبه أشنع التعذيب. ولذلك دعوا الأجيال الوسطى «أجيال الظلمات».

ثمّ كان ما يدعونه عصر الانبعاث ـ وهو بدء العصر الذي نحن فيه ـ فانطلق الفكر من سجنه والخيال من عقاله. فكانت طفرة في الفنّ وفي الأدب، وكان تفتيش محموم عن بعض ما أُغلق على الناس من أسرار الطبيعة. وإذا البخار يسيّر القُطُر الحديدية في البرّ، والسفن الكبيرة في البحر؛ وإذا البرق في خدمة الناس يحمل رسائلهم، وينير مساكنهم، ويدير دواليب معاملهم، ثمّ ينتهي بأن يحمل أصواتهم عبر الجبال والسهول والبحار حتى تُمنطق الأرض. وإذا الأرض تنفرج أحشاؤها عن غازات غريبة وعن سائل أسود عجيب، والجوّ يخفض جانبه للإنسان فيجوبه بأجنحة محمولة بقوّة ذلك السائل العجيب. وإذا الإنسان ذو عين تنفذ إلى دقائق الحياة في قطرة من الماء وفي قبضة من الهواء، وأخرى